مقدمة

كنت أجمع المراجع التى أعتمد عليها فى رسالتى التى قدمتها إلى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول، لأحصل على درجة الماجستير فى «نشأة الكتابة فى الأدب العربى»، فوجدت الكتب التى تتعرض لنشأة التاريخ عند العرب، تستعير كثيرا من كتاب يسمى «المغازى الأولى ومؤلفوها»، من تأليف الأستاذ الألمانى يوسف هوروفتس Josef Horovitz فبحثت عنه، فوجدته مقالات فى مجلة «الثقافة الإسلامية Islamic Culture» التى تصدر فى حيدر أباد بالهند باللغة الإنجليزية، فى أعداد عامى ١٩٢٧، ١٩٢٨، فعثرت فيه على تحفة رائعة فى نشأة كتب المغازى والسِّيَر عند المسلمين وأطوارها الأولى.

اسم هذا الكتاب:

Early Biographies of the prophet and their Authors

وقد ترجمته باسم «المغازى الأولى ومؤلفوها»، وآثرت كلمة «المغازى» على كلمة «السِّيَر» مقتديا فى ذلك بالمؤلف نفسه، فهو الذى اختار هذا اللفظ، وكتبه بالحروف اللاتينية فى أصله الأوربى[1]. ويجدر بى أن أشير إلى أن لفظ «المغازى» يعنى: «الغزوات»، وهى الحروب التى اشترك فيها الرسول بالقتال. ولكن هذا الاسم تدرّج فى الزمن، فاتسع

---

(١) ص ٢ من هذا الكتاب.

معناه ، وشمل تاريخ حياة النبي جميعها . وأرجح أنه فى توسعه الأول شمل حياة النبي فى المدينة وحدها ، لأنها مدّة الجهاد الحربى ، الذى ساير قيام الدولة الإسلامية . فهذه المدة من حياة الرسول مزدحمة بهذه الحملات على قريش ، والقبائل العربية ، واليهود ، ثم من سكن أطراف الشام ، وخضع للرومان من العرب . ولذلك لايبعد المرء كثيرا إذا سماها مُدّة المغازى . ثم اتسع اللفظ حتى شمل حياة النبي بأكملها ، فإنه إذا كانت المدة المدنية مُدّة الجهاد الحربى ، فإن المدة المكية كانت مدة الجهاد السلمى فى سبيل نشر الدعوة سرًا ثم جهرا . وعلى هذه الصورة اتسع هذا اللفظ ، فصار يعنى « سيرة النبي صلى الله عليه وسلم » كلها ، وبهذا المعنى يستعمله مؤلف الكتاب .

ويعرض الكتاب دراسة فريدة لم يُسبق إليها فيما أعلم ، فهو يتناول طائفة من المؤرخين المبكّرين الذين وصفوا حياة الرسول وكتبوا فيها المؤلفات. فيذكر ترجمة وافية لهم، مبينا مراكزهم الاجتماعية ، وأعمالهم الرسمية، ويعنى بنشأتهم العلمية ، وكيف حصلوا على معارفهم ، وآرائهم العلمية . ثم يتناول ما ألفوا من كتب ، ويقف عندها طويلا ، ملخصا محتوياتها ، واصفا قيمتها الفنية ، وأخيرا يصف ما كتبوا فى المغازى بالمعنى الخاص أو العام، ومقدار ارتباطها بحياة النبي فى مكة وفى المدينة ، أو ارتباطها بالحياة الإسلامية عامة .

وها هو ذا يقول مجملا منهجه[1] : « وسنتكلم فيما يلى عن هؤلاء

---

(١) ص ٢ .

العلماء بالمغازى خاصة من التابعين ، وعن مدوّناتهم . ولكننا لن نقف عند هذا الجانب وحده من نشاطهم ، بل نجمع كذلك كل الأخبار الهامة التى نقف عليها مضافة إليهم . وسنتناول فى فصل آخر أو اثنين العلماء بالمغازى فى الجيل التالى ، جيل تابعى التابعين . وأخيرا نتناول أقدم السِّيَر الشاملة لحياة النبى ، أعنى سير ابن إسحاق ومعاصريه ، وكذلك الواقدىّ وابن سعد » .

فيترجم أبان بن عثمان ، وعُرْوة بن الزبير ، وشرحبيل بن سعد ، ووهب بن منبه فى الفصل الأول ؛ ثم عبد الله بن أبى بكر بن حزم ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، والزهرى فى الفصل الثانى ؛ ثم موسى بن عقبة ، ومعمر بن راشد ، ومحمد بن إسحاق ، فى الفصل الثالث ؛ وأخيرا أبا معشر السِّندى ، والواقدى ، وابن سعد ، فى الفصل الأخير .

فهو إذن كتاب يؤرخ لمن كتب فى المغازى ، ولا يقصد الحركة التاريخية عامة . ولذلك لا يترجم لمن كتب فى تاريخ اليمن أو القصص العربية الشعبية ، من أمثال عَبيد بن شَرِية ؛ ولا لمن ألف فى الأنساب والأيام ، من أمثال ابن الكلبى وأبى عبيدة ؛ ولا لمن ألف فى تاريخ الخلافة والخلفاء وحدهم ، من أمثال عَوانة بن الحكم وأبى مِخْنَف ، ولا لمن ألف فى الأدب والأدباء ، من أمثال حَمّاد الراوية . وكذلك لا يتعرض لمن اكتفى بالرواية من المؤرخين ، ولو رووا السير والمغازى ، وإنما يوجه عنايته إلى من كتب منهم .

وقد شمل كتابه القرنين الأولين من الإسلام ، فكان آخر من كتب عنهم ابن سعد . وعنى عناية خاصة بعروة بن الزُّبير ، ووهب بن منبه ، والزُّهرى ، ومحمد بن إسحاق ، والواقدىّ ، وخاصة الأخيرين ، فوقف عندهم وقفة طويلة ، بيَّن فيها ترجمتهم الكاملة ، وفحص عن كتاباتهم فحصا دقيقا ، وناقش أقوال العلماء ، والمناهج المختلفة التى اصطنعوها فى مغازيهم وسيرهم . بل بلغ اهتمامه بابن إسحاق درجة جعلته يختصر رسالة جدّ عظيمة للأستاذ « فيك Fück » ، ويدخل زُبدتها فى كتابه ؛ بعد أن حلّاها ببعض الحواشى والتعليقات[1] . وفعلا وصل إلى القمة عند محمد بن إسحاق فى الترجمة ، والتمحيص ، والمناقشة ، والابتكار ، وخرج علينا بتقسيم جديد لكتابه فى المغازى[2] . ونحن — وإن لم نستطع موافقة المؤلف فى جزئيات هذا التقسيم ، نعجب ولا شك ، بالجهد الرائع الذى بذله لإظهار هذه الترجمة التى لا نظير لها . ويمكننا أن نطلق هذا القول بدون مغالاة على ترجمته للواقدىّ أيضا . أما بقية التراجم ، فهى وإن كانت مختصرة ، إلا أنها حاوية ، لا تهمل شيئا مُهمّا يفيد لنا الطريق لنتصور هؤلاء العلماء بالمغازى وكتبهم .

وكانت مادة المؤلف فى تصور كتب هؤلاء العلماء، النُّتَف والمقتطفات الباقية فى الكتب التاريخية التى أخذت عنهم ؛ فجمع هذه النصوص ورتبها ، وحاول أن يخرج منها بصورة واضحة عن كل كتاب . ومن

---

(١) ص ٧٦ .

(٢) ص ٨٤ .

الواضح منذ النظرة الأولى فى كتابه ، أنه بذل جهدا مشكورا ليصل إلى ما وصل إليه من معلومات قيمة ومبتكرة فى غالب الأحيان . ولعلنا نستطيع أن نقتفى أثره ، ونخرج سلسلة من الأبحاث فى نشأة الفروع الأخرى من الأدب والعلم عند العرب ، مستعينين بالأسانيد التى كان يواظب عليها القُدامى من المؤلفين فى أكثر الأحيان . فإن هذه الدراسة تؤدى بنا إلى كثير من النتائج العلمية الدقيقة .

وصفوة القول فى هذا الكتاب : أنه أول دراسة من نوعها تذاع فى الشرق العربى ، تهدينا إلى المجد الرفيع الذى بلغه أجدادنا فى قديم زمانهم ؛ وإلى المناهج العلمية الدقيقة التى كانوا يصطنعونها ويحافظون عليها ، وإلى الحياد وحب الحق ، مما التزموه فى دراساتهم العلمية ، حتى تعرضوا للمخاطر ، ولظلم من ظلم .

ومن الطبيعى ألّا يبرأ الكتاب من بعض وجوه النقد ، التى يسببها له المنهج الذى اختاره المؤلف ، فهو حين يتتبع مقتطفات التواريخ من هذه الكتب لا يميز بين الروايات والمُدوَّنات ، بل يتغاضى أحيانا عن الروايات ، ويرجح تدوينها[1] ، وبهذا قد يدخل فى تصورنا المغازى الأصلية معلومات ربما لم تكن فيها .

ويشتط المؤلف أحيانا نادرة فى بعض الآراء ، فيطلقها إطلاقا دون أن يتروّى فيها . وقد تعقبته فى هذه المواضع ، وعلقت على آرائه ، وبينت آراء

---

(١) ص ٢٠ .

غيره من العلماء ، ليستخلص القارئ الرأى الصحيح ، أو يختار الرأى الذى يرتضيه . وقد أشرت إلى هذه الحواشى التى من عندى بالحرف الأول من اسمى « ح » لأميزها عن حواشى المؤلف . وعلى ذكر هذه الحواشى أشير إلى أنى قاسيت منها أشد المتاعب لأصل إلى مصادرها ، بسبب اختلاف الطبعات ، والأخطاء المطبعية التى وقعت فى الأرقام .

ومن الأمور التى شَطَّ فيها قلم المؤلف نسبته التأليف فى المغازى لشرحبيل بن سعد ، وعبد الله بن أبى بكر ، فالخبر الذى رواه ابن حجر يدل على أن موسى بن عقبة هو الكاتب ، حتى إنه ليقول : « وقَيَّد من شهد بدرا وأحدا ، ومن هاجر إلى الحبشة والمدينة ، وكتب ذلك » . فكلمتا : « قيد ، وكتب » تنصان على أن موسى فعل ذلك مقابلة لرواية شرحبيل ، وإثباتا لوجه الصواب على مُدَوَّنة لا يستطاع تغييرها[1] . وكذلك عبد الله بن أبى بكر لا نستطيع أن نثبت له كتابا فى المغازى ، لمجرد أن ابن أخيه عبد الملك بن محمد ألف فيها[2] .

وأفلت من المؤلف بعض الكتب لم يتنبه له مثل « كتاب مشاهد النبى » الذى ينسبه شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى فى « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » للزهرى[3] . ولم يتنبه لسليمان ابن طرخان المتوفى عام ١٤٣ هـ وألف كتابا يسمى : « السيرة الصحيحة »

---

(١) ص ٢٦ . (٢) ص ٤١ . (٣) ص ٨٨ .

وقد وجـــده الأستاذ « فون كريمر Von Kremer » فى نهاية مغازى الواقدى ، فحققهما معا ونشرهما فى الهند .

ويُؤخذ على المؤلف قلة الاستشهاد ، بل عدمه تقريبا . وقد استدركت هـذا النقص بالضمائم التى جمعتها فى آخر الـكتاب ، إذ أتيت لكل مؤرخ مذكور بشىء من مقتطفاته المحفوظة فى الـكتب المتأخرة ، التى رجع إليها المؤلف .

ومهما يكن من شىء فإن الـكتاب تحفة رائعة أُقدِّمها لإخوانى القراء فى العالم العربىّ ، شاكرا مؤلفها جزيل الشكر ، راجيا أن تفتح أمامنا آفاقا جـديدة للبحث فى مواطن الدراسة العربية ، وفقنا الله جميعا ، وهدانا الصراط المستقيم ؟.

مصطفى نصار

القاهرة فى يوم الاثنين { ٢٤ من صـفر سنة ١٣٦٩ هـ
١٤ من ديسمبر سنة ١٩٤٩ م

شكر

وإنى مدين بجزيل الشكر لأستاذى الجليل « مصطفى السقا » الأستاذ المساعد بكلية الآداب ، الذى أَوْلَى هذا الكتاب كثيرا من عنايته ، فى تقويم ترجمته العربية ، وتصحيح تجاربه المطبعية ، ثم فى إذاعته ونشره .

كما أرى لزاما علىّ أن أقدم موفور الشكر لحضرات الناشرين للكتاب : أصحاب مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده ، الذين رحبوا به ، وأعانونى على إذاعته فى هذه الصورة . ولا أنسى إدارة المطبعة وعمالها الذين بذلوا جهودا مشكورة فى أعمالهم الفنية ؟